الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض
أثناء سيادة المسلمين عليه
٤

بقى أن نناقش نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع كله ، هى نقطة الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض فيما بين منتصف القرن الثامن إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين .

وأمامنا فى هذه الناحية رأى يتناقله المحدثون من مؤرخى الإسلام كأنه حقيقة مقررة لا شك فى صحتها تاريخياً : هى أنه قامت على شواطىء هذا البحر خلال هذه الفترة أربع دول كبرى ، اثنتان إسلاميتان : هما العباسية فى المغرب والأموية فى الأندلس ، واثنتان نصرانيتان : هما البيزنطية فى الشرق والفرنجية فى الغرب ، وأن الدولتين الإسلاميتين كانتا على عداء فيما بينهما ، وكذلك الدولتين النصرانيتين . ولهذا اجتهدت الدولة العباسية فى محالفة الدولة الكارولنجية للاستعانة بها على الدولة الأموية الأندلسية ، وفى نفس الوقت اجتهدت الدولتان البيزنطية والأموية فى التحالف معاً للقضاء على خصميهما .

ويذهب أولئك المؤرخون إلى أن الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والمحالفات ، وكذلك فعل أمراء بيزنطة وخلفاء الدولة الأموية والأندلسية .

ولكننا عندما نمضى فى دراسة العلاقات بين هذه الدول الأربع ، نتبين أن الأمر مجرد وهم تاريخى تناقله الناس واحداً عن واحد دون تحقيق أو تفكير سليم .

أ ــ العباسيون والكارولنجيون :

وقد ناقش الناحية الأولى علاقة الدولة العباسية بالدولة الكارولنجية مؤرخون كثيرون فيما بين مؤيد ومعارض ، من أمثال بكلر وجورانسن ورنسيمان وف . ف . شميت وغيرهم ، وقد ناقش هذه الآراء كلها الدكتور عبدالعزيز الدُّورى مناقشة طيبة فى كتابه «العصر العباسى الأول» ، وانتهى إلى نتائج يمكننا الأخذ بها ، وسنعرض هنا مناقشته فى إيجاز :

قال : «تخلو المصادر الشرقية ــ إسلامية ومسيحية ــ من الإشارة إلى أى صلة بين الرشيد وشارلمان ، وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك ، ولكنها مضطربة وغامضة ، فلا غرابة أن وجدنا تبلبل الكتاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات . ولكنهم جميعاً ــ عدا بارتولد ــ يقررون صحتها ثم يختلفون فى تفسير نتائجها» .

وهذه المصادر اللاتينية التى يشير إليها الدكتور الدورى هى :

Eginhard: Vita Caroli.

St. Call: Gesta Caroli Magni.

Gests Regum Francorum.(1)

وهذه المصادر تؤكد أن هارون الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والهدايا فيما بين سنتى ٧٩٧ و٨٠١ ، و«بينما كانت السفارة التى أرسلها شارلمان شلى الرشيد فى الشرق ، حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين

---

(١) هذه هى الإشارات الكاملة إلى المراجع التى يشير إليها المؤلف :

Eginhard: Vie de Charlemagne, publ. avec trad. francaise par L. Halphen, 2e. éd. Paris, 1938.
Moine de Saint-Gall: Gesta Caroli Magni, pub. dans les Mon. Germ. Série des Seriptores Tome II, Hanovre, 1829.

Gesta Regum Francorum, publ. par B.Krusch sous le titre: Liber Historiae Francorum dans les Mon. Germ. Série des Seriptores rerum Merovingicarum. Tome II, Hanovre, 1888.

بطريق القدس وشارلمان ، وكان البادىء بها البطريق ، إذ أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية . ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأرض المقدسة . وفى كانون الأول سنة ٨٠٠ رجع زكريا إلى الغرب يصحبه راهبان من قبل بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح كنيسة القدس وراية . ثم يقول :

أما العوامل التى دعت إلى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهى متعددة ، منها رغبة شارلمان فى فتح الأندلس وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوى لئلا يقف عرب الأندلس فى وجهه كعدو للإسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨ حين هاجم شمال الأندلس وفشل . ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية ، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحى . ورغبة البابا (حليف شارلمان) فى تقوية صلاته مع بطارقة الإسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه . ثم رغبة شارلمان فى تسهيل الحج إلى الأراضى المقدسة وفى تكوين نفوذ معنوى له فى تلك البقاع .

أما مصالح الرشيد فهى ناتجة فى زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته فى القضاء على نفوذهم المعنوى بين مسيحيى الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب ، ثم عدائه لأمويى الأندلس ورغبته فى بسط سيادته عليهم[1] .

---

(١) انظر : Buckler. Harun al-Rashid and Gharles the Creat (Massachusetts, 1931), p. 170 off

Joranson: The Alleged Frankish Protectorate in Palestine A.H.R. 1927, pp. 241-6.

S. Runciman: Charlemagne and Palestine E.H.R. Op. cit. 1935, pp. 606 off.

F.F. Schmidt: Karl der Grosse und Harun al-Rashid.

Der Islam, vol. III, 1912, pp. 409-11.

وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود ـــ وهى تأويلات بنوها على التخمين غالباً ـــ نذكر بعض الشكوك التى تساورنا فى التفاصيل المذكورة والتى تجعلنا نميل لنفى وجود صلات سياسية .

«فقبل كل شيء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب ، فالمصدر الأول المعاصر ـــ وهو الأخبار ـــ الملكية» Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات ، بينما قصد اينهارد فى كتابه «سيرة شارلمان» تفخيم سيده ورفع اسمه ، وفى الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه . أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتاب الأساطير[1] . وقد اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفى وجود الصلات[2] .

ثم يظهر لى أن الباحثين ظروف شارلمان ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل . فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم إلى دفع الجزية سنة ٧٩٨ ، كما أنه لا دليل على أن مسيحيى الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة فى عهده . ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين ؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته فى ذلك الغريب لاسترجاع الأندلس ؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحى لضرب مسلمى الأندلس ؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد فى استرجاع الأندلس فى وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية فى إفريقية (تونس) والمغرب ؟ كل هذه نقاط تنفى بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان . ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان

---

(١) انظر : Joranson op. cit. p. 251, Runciman, op. cit. p. 619.

(٢) انظر : Buckler, op. cit. p. 34-7

مع البيزنطيين حسنة فى هذا الدور . ففى سنة ٧٩٨ أرسلت إيرينى وفداً إلى شارلمان للمفاوضة فى عقد حلف[١] واقترحت عليه الزواج ، ولعلها سلمت بإعطائه لقب إمبراطور[٢] . ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسى وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه ؟ لا أرى ذلك .

وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق ، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة) ... ويرى أن إسحاق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب لا سفيراً[٣]. ويقوى رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل[٤] .

«أما فيما يخص نتائج الصلات ، فيرى فاسيلييف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين ، «صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (فى الأراضى المقدسة) وحق إنشاء كنائس وخانات فى فلسطين»[٥] .

أما بريه Brehier فيستنتج من قول اينهارد إن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضى المقدسة كما أن إرسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامى الجديد .

---

(١) Ibid. p. 18.

(٢) Ibid. p. 20-21.

(٣) Ibid. p. 45.

(٤) Joranson, op. cit. p. 243.

(٥) Ibid. p. 241.

وقد بين الأستاذ جورانسن أن آراء برييه مبنية على التخمين لا على تدقيق علمى ، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول ، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل ، فحصل عليه . وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم ، كما أننا لا ندرى ما إذا كانت قد حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى إنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه[1] . أما تقديم المفاتيح والراية من قِبَلِ البطريق فلا يمكن أن يعطى معنى سياسياً ؛ لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك benedictionis causa ، وإذن «فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس فيها» . ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان . ثم يستطرد جورانسن ويقول : إن «الأخبار الملكية» لا تذكر مهمة الوفد الإفرنجى الثانى ، وإن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطالب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضى المقدسة . ولكن اينهارد (فى رأى جورانسن) لا يمكن الوثوق به ، كما أنه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩) ، ثم إنه لا يعرفَ طلبات الوفد ، بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له[2] .

تبقى نقطة أخيرة وهى أن شارلمان أرسل صدقات وهبات إلى فلسطين فاستعملت فى تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلا للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة . ولكن ذلك لا يكفى ، كما يرى جورانسن ، للبرهنة على وجود حماية ، خاصة وأن ايتهارد يذكر أن شارلمان «خطب ود الملوك وراء البحار

---

(١) Joranson, p. 242-5.

(٢) Joranson, op. cit. pp. 248-52.

لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون فى ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد[١]. وهكذا يدحض جورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضى المقدسة .

أما بكلر ، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم ، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة ، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحى بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث : (١) تحديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية فى الأندلس وفى غربى البحر المتوسط ، (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمى إلى التعاون المتبادل ، فيقف شارلمان ضد الأندلس ، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين ، أو السماح لإيرينى بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسى أن الصلح عقد سنة ٧٩٨) ، (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيادة الأراضى المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٢]. وهكذا يبنى بكلر نظريته على الحدس ، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ، ولكنه يقول : إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجب وضع تقييدات على المسيحيين ؛ ولذلك توسط شارلمان فى الموضوع[٣]. ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى مستدلا على ذلك بإرسال بطريق القدس مفاتيح المدينة والراية[٤]. وهذا المنصب لا يتطلب (فى زعمه) حضور شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[٥]. وكذلك عين شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس[٦] .

---

(١) Ibid. p. 255.

(٢) Buckler, p. 22.

(٣) Ibid. pp. 26-9.

(٤) Ibid. p. 30.

(٥) Ibid. p. 29 No. 1.

(٦) Ibid. p. 35.

ويقول بكلر : إن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الإسلامية ، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى ، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله فى تنفيذ مهامه ! ثم هو يجعل شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس مستنداً بذلك إلى تفسير الماوردى لإمارة الاستيلاء . ولكن الماوردى يبين أن إمارة الاستيلاء «تعقد عن اضطراب ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين»[1] . فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين ؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزرى ؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس ، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره ؟ وأخيراً نقول : إن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها ، وذلك لضرورات عسكرية . وهكذا نرى بكلر يتخبط فى موضوع لا يفهم كنهه ، ويفرض فروضاً لا أساس لها فى الفقه أو التاريخ الإسلامى .

أما «رنسيمان» فيرى فى نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة ، اخترعها المؤرخ الأسطورى الراهب سنت كول الذى كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان ، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التى أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[2] .

وهكذا يظهر وَهَنُ نظرية الحماية وأساسها الأسطورى . والذى أراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر فى المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ص٢٧ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 629.

وجود نوع من الصلات ، ولكنها صلات تجارية لا سياسية . وأن المسئول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين كما بين بن خرداذبة[1] ، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم .

وهذه المناقشة السليمة تجلو هذه الناحية جلاء تاماً ، وتظهر بوضوح أنها من ابتكار مؤرخى شارلمان ليزيدوا من فضله وجاهه ، وأن الذين أيدوها من المؤرخين الأوروبيين المحدثين إنما فعلوا ذلك بدوافع بعضها دينى كالرغبة فى إثبات أن المسلمين فى أيام عزهم سمحوا للنصارى بحماية الأراضى المقدسة ، بل تركوا مفاتيح كنيسة القيامة فى يد شارلمان ، وبعضها سياسى يرمى إلى القول بأن للغرب على الأراضى المقدسة حقوقاً اعترفت بها الدولة الإسلامية فى أوجها .

ب ــ الأمويون الأندلسيون والبيزنطيون :

أما الجانب الثانى من هذا الموضوع ، جانب علاقات الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية ، فهو أوضح بعض الشىء ، ولدينا عنه معلومات يمكن الوثوق فيها ، بل لدينا نصوص مكاتبات احتفظت بها المراجع ، ونحن لهذا نستطيع تكوين صورة واضحة عنه وقد تناوله بالبحث علماء من طراز راينهارت دوزى وجورج مارسيه وليفى بروفنسال وفازيلييف .

والمعلومات التى بين أيدينا عن هذه العلاقات متفرقة فى كثير من مراجع التاريخ الأندلسى ، مثل مقتبس بن حيان والبيان المغرب لابن عذارى ونفح الطيب للمقرى وتاريخ بن خلدون . والمعلومات التى يقدمها لنا ابن حيان

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعتناء دى خويه ، ليدن) ، ص ١٥٤ .

فى المقتبس ترجع بدورها إلى اثنين من أوثق وأقدم مؤرخى الأندلس عاشا فى القرن العاشر الميلادى هما الحسن بن محمد بن مفرج وعيسى بن أحمد الرازى .

وتتلخص هذه المعلومات فى أن إمبراطور بيزنطة تيوفيل الرابع أرسل فى سنة ٢٢٥ ــ ٨٣٩/٨٤٠ إلى عبدالرحمن الأوسط «ترجماناً» رومياً (أى سفيراً) يسمى كرتيوس Kratiyus ، حاملا هدايا ورسالة يخطب فيها وده ويسأله أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويحرضه على استرجاع ملك أجداده فى الشام الذى غصبه العباسيون ، ويطلب استخلاص إقريطش ممن استولى عليها من الأندلسيين وردها إلى دولة الروم .

والغالب أن دافع الإمبراطور البيزنطى إلى هذا المسعى كان خوفه من نوايا المعتصم الخليفة العباسى ، وكان المعتصم قد غضب من عدوان الروم على زبطرة سنة ٨٣٧ ، فقام فى صيف العام التالى بغزوة كبيرة على أرض الروم استولى فيها على عمورية مهد البيت البيزنطى الحاكم . وقد اكتفى المعتصم بذلك ولم يواصل نشاطه ، ولكن يبدو أن تيوفيل ظل متخوفاً منه ، فكان هذا ــ على الأغلب ــ ما دفعه إلى مكاتبة عبدالرحمن الأوسط ، لعله يثير على العباسيين مشكلة تصرفهم عنه . ومما يؤيد ذلك أن تيودفيل أرسل فى نفس الوقت سفارتين إحداهما إلى لويس التقى والأخرى إلى البندقية ، يستصرخهما لعونه على العباسيين الذين كانوا يهددون دولته فى الشرق ، وعلى أهل إفريقية وصقلية الذين استولوا على جزء كبير من أملاك الدولة فى الغرب . وقد رد عبدالرحمن على ذلك بسفارة إلى الإمبراطور البيزنطى تتكون من اثنين من المنجمين والشاعر المعروف يحيى بن حكم الغزال ، ومعهم رسالة احتفظ لنا ابن حيان بنصها .وقارىء هذه الرسالة يتبين بوضوح أن عبدالرحمن كان شديد الحذر فى كتابه إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ نعم إننا نجد فى هذا الرد دلائل على كراهيته للعباسيين وألمه لقضائهم على البيت المروانى وقتلهم جده مروان بن محمد ، ولكنه لم يرتبط من ناحيته

بشيء ، حتى عن الأندلسيين الذين كانوا قد استولوا على صقلية يقرر عبدالرحمن أنهم منذ طُردوا من الأندلس لم يعودوا رعاياه . ولا يشير الكتاب إلى ما ذكره الإمبراطور البيزنطى من أعمال الأغالبة فى صقلية وجنوبى إيطاليا .

وقد تجددت المحاولة فى عهد عبدالرحمن الناصر ، وكان البادىء بها هذه المرة هو الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيرو جنيت Porphyrogenete (لابس الأرجوان) ، فقد أرسل فى سنة ٣٣٦و٤٤٧ ــ ٨ سفارة إلى الناصر . ولم تحتفظ لنا المراجع بنص رسالته إلى كبير خلفاء الإسلام فى عصره ، ولكن الغالب أن الذى دفع الإمبراطور البيزنطى إلى مكاتبة الناصر كان شعوره بما كان بين الأمويين والفاطميين من عداء وتخوفه من نوايا أولئك الأخيرين نحوه بعد انتقالهم إلى مصر . وقد تلقى الناصر السفارة البيزنطية لقاء حسناً حرص فيه على أن يظهر دولته بمظهر القوة والجاه ، وقد وصف لنا المقرى مشهد استقبال سفراء الروم وصفاً بديعاً ، وأورد نص الخطبة التى ألقاها منذر بن سعيد البلوطى كبير علماء الأندلس فى عصره فى هذه المناسبة ، وهى قطعة من البلاغة الجوفاء لا تغنى بشيء فى هذا المقام . وقد رد الناصر على سفارة الإمبراطور البيزنطى بكتاب سلمه إلى رسله مع طائفة من الهدايا والألطاف ، وبعث معهم رجلا من عنده هو هشام بن هذيل ــ أو كليب ــ كان من قسوس مستعربى الأندلس ، ولهذا تسميه المراجع العربية بالجاثليق Catholicus ، وقد عاد هشام إلى الأندلس بعد سنتين .

ويحدثنا المقرى فى نفح الطيب أن عبدالرحمن الناصر عندما شرع فى بناء مدينة الزهراء بعث إلى القسطنطينية فى طلب الفسيفساء والمرمر ، وقد قام بالسفارة هذه المرة كبير مستعربى الأندلس الأسقف ربيع بن زيد ، فأدى الرسالة وعاد بالتحف المطلوبة . ويفهم من رواية المقرى أنه مرَّ ببيت المقدس واستصحب فى عودته نفراً من صناع الفسيفساء ليعلموا أهل الأندلس

صنعها وتركيبها . ويقول المقرى فى كلامه عن الزهراء : «وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليها أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء (بيت المقدس) ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام ــ وقيل من القسطنطينية ــ مع ربيع الأسقف» . ويبدو أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التى أرسلت بيزنطة فيها إلى الأندلس طُرف الفن ومهرة الصناع ، فقد ورد عليها أيام الحَكم المستنصر نفر آخر منهم ، ومن هؤلاء الصناع البيزنطيين تعلم أهل الأندلس هذه الفنون الجميلة ، وكان لهذا أبعد الأثر فى تطور الفن الأندلسى ، وقد علق مؤرخو الفن الإسلامى ــ مثل هنرى تيراس ــ أهمية كبرى على ذلك .

ويحدثنا بن أبى أصيبعة فى «طبقات الأطباء» : « أن الناصر كاتب أرمانيوس الملك ، ملك قسطنطينية Romanus Lécapenus ــ أحسب سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ــ وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، فكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريديس Dioscorides مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، وبعض معه كتاب هروسيس Paulus Orosius صاحب القصص وهو تاريخ للروح عجيب ...» .

وقد وصلت هذه الهدية الجلية مع سفارة استقبلها الناصر ورجال دولته استقبالا حافلا . ويذهب ليفى بروفنسال إلى أن هذه السفارة قد تكون هى نفسها التى وقعت سنة ٣٣٨ــ٩٤٩ ، ويعجب من أن وصف احتفال الناصر بها كما أورده بن حيان ينطبق تمام الانطباق على ما أورده قسطنطين السابع لابس الأرجوان عنها فى كتاب «الاحتفالات» .

ونخرج من هذا الكلام بأنه كانت بين الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية مراسلات وسفارات ، وأن أباطرة البيزنطيين حسبوا أول الأمر

أنهم يستطيعون الإفادة من العداء الطبيعى بين الأمويين الأندلسيين والعباسيين فى كسب الأولين إلى جانبهم والاستعانة بهم على العباسيين . وقد رأينا أن الدافع الأول للبيزنطيين على مكاتبة الأمويين أن الذين انتزعوا منهم إقريطش كانوا أندلسيين ، فحسب البيزنطيون أن أمير قرطبة يستطيع رد أذى الأندلسيين عن شواطىء الروم ، وتوسلوا إلى ذلك بتذكير الأمويين بمساءات العباسيين إليهم ولوحوا لهم بإمكان فتحهم للشام . ولكن أمراء الأندلس كانوا أعقل من أن يجروا وراء هذه الأوهام وأكيس من أن يجأروا إلى الإمبراطور البيزنطى فيما جمح به خياله إليه ، وتمكنوا ــ بما عهد فيهم من كياسة ــ من توجيه العلاقات بينهم وبين بيزنطة وجهة سلمية علمية أفاد الأندلس منها فائدة جليلة .

لم يكن هناك إذن اتفاق بين البيزنطيين والأمويين على عداء العباسيين ، ولا تفاهم بين العباسيين مع الفرنجة على الإضرار بالأندلس ، والموضوع كله وهم تاريخى أشبه بالأسطورة أخذت هيئة الحقيقة التاريخية لكثرة تكرارها وإلحاح المؤرخين على ذكرها .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن نشير إلى نتائج قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية على سيطرة المسلمين على هذا البحر . فقد وقع النفور الشديد من أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين ، وأخذ كل منهما حذره من الآخر ، وكما كانت الدولتان على عداء فى البر كانتا فى البحر أيضاً كذلك ، فأخذت سفن كل منهما تتعقب سفن الأخرى وتؤذيها ، فكانت النتيجة أن ضعفت الجبهة البحرية الإسلامية فى غرب البحر الأبيض ، وبدلا من أن توجه أساطيل المسلمين قوتها نحو الجبهة النصرانية المعادية ، اجتهد كل منهما فى محاربة الآخر وتعقب سفنه ، واحترزت كل من الدولتين الأموية الأندلسية والفاطمية على سواحلها من عدوتها . وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت البابوية تجتهد فيه فى توحيد قوى الدول النصرانية وتوجيهها لحرب

المسلمين . وإلى هذا الجهد البابوى يرجع الفضل فى توجيه بيزا وجنوا قواتهما وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين ، وكانت هذه كلها طلائع ضعف الجبهة البحرية الإسلامية وتراجعها وخروج البحر الأبيض الغربى من سلطان المسلمين ، وذلك كله يكون ـــ فى اعتبارنا ـــ طرفاً من المقدمات البعيدة للصليبيات .

★★★★

خاتمة :

هذه هى قصة دخول المسلمين البحر الأبيض وسيطرتهم عليه ، وتحويلهم إياه إلى بحيرة إسلامية طوال ثلاثة قرون ، وما ترتب على ذلك من نتائج فى العالمين الشرقى والغربى .

وقد رأينا أن المسلمين سيطروا بالفعل على أمواه ذلك البحر ، وسادته أساطيلهم الرسمية وغير الرسمية ، وملكوا عنانه وحالوا بين غيرهم وبين تسيير السفن فيه ، ولكن ذلك كله لم يَعْدُ أن يكون سيطرة حربية كان ينبغى أن يفيد منها المسلمون . نعم إن السفن والمتاجر كانت دائمة السير بين ثغور المسلمين فى الشرق والغرب ، وإن الحركة كانت عظيمة بين موانى الشام ومصر والمغرب والأندلس ، ولكن هذا النشاط البحرى لم يكن بالقدر الذى كان يمكن الوصول إليه . وإنه لمن الغريب حقاً أن نجد ثغوراً مثل عكا ويافا وصور وصيدا وعسقلان وتنيس ودمياط والإسكندرية تهبط عما كانت عليه أيام الرومان والبيزنطيين بدلا من أن تعظم وتنشط ، حتى دور الصناعة وفن بناء السفن نجدهما فى تقهقر مستمر . وربما كان هذا أضعف جانب فى البناء العام للدول الإسلامية ؛ لأن هذا الضعف البحرى هو الذى حال بين المسلمين وبين القضاء على بيزنطة منذ زمن مبكر ، فبقيت عقبة كئوداً فى سبيل التوسع الإسلامى سياسياً ودينياً . ومن ناحية أخرى نجد أن العالم الإسلامى الغربى إنما أتى من جانب البحر قبل أن يؤتى من جانب البر ، وكان ضعف البحريات الإسلامية المنظمة من آكد الأسباب فى ضياع الأندلس وجزائر البحر ثم فى انهيار دول المغرب بعد ذلك . وهذه كلها ملاحظات نبديها سراعاً ؛ إذ لا يتسع المجال لبحثها فى هذا المقام بحثاً مطولا . وبحسبنا أن نضعها تحت أنظار الباحثين للتأمل والدراسة .

سيطر المسلمون على البحر الأبيض ولكنهم لم ينتفعوا به الانتفاع الواجب ، ظل فى نظرهم دائماً حداً أو ساحة قتال دون أن يستطيعوا تحويله إلى طريق سلام وانتقال وتبادل تجارى وغير تجارى . ملكوا عنان البحر ولكنهم لم يستعملوه استعماله الصحيح ، فضاعت عليهم الفوائد التى كان يمكن أن تعود عليهم لو أنهم حولوا هذا البحر إلى أداة اتصال وتقارب كما كان على عهود الرومان وكما سيصبح فى العصور الحديثة . والبحر الأبيض ليس مجرد مساحة مائية ، وإنما هو همزة وصل بين ثلاث قارات ، وأداة طيبة جداً للسلطان والجاه والغنى ، ومهد لحضارات إنسانية كبرى ؛ والاتصال به والانتفاع منه بركة كبرى على من يستطيع ذلك ، ولكنه نقمة على من لا يستطيع . ولم يدرك المسلمون هذه الحقائق الهامة إلا بعد فوات الأوان ، وانتقال البحر الأبيض إلى أيد غير أيديهم .

حسين مؤنس

مراجع البحث

(أ) أصول :

ـــ ابن الأثير : الكامل ، ط تورنبرج ١٨٦٧ ـــ ١٨٧٦ ، والقاهرة ١٣٤٨ .

ـــ أمارى ، ميكيلى : المكتبة الصقلية ، ١٨٥٤ ، ٣ مجلدات

ـــ البلاذرى : فتوح البلدان ، ط القاهرة ١٩٣٢ .

ـــ ابن حوقل : صورة الأرض ، ط كرامرز ، ليدت ١٩٣٨ .

ـــ ابن حيان : المقتبس ، ط ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ .

ـــ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ط لايبسيك ١٨٦٩ .

ـــ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٣٦ .

ـــ ابن خلدون : المقدمة ، ط بيروت ١٨٨٦ .

ـــ الطبرى : تاريخ ، ط دى خويه ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

ـــ ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تورى ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٠ .

ـــ ابن عبدربه : العقد الفريد ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠ ـــ ١٩٥٢ ، حـ ٢ .

ـــ ابن عبدالمنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ط ليفى بروفنسال ، القاهرة ـــ لايدن ١٩٣٨ .

ـــ ابن عذارى : البيان المغرب ، ط دوزى ، لايدن ، حـ ١ و٢ ، وطبعة ليفى بروفنسال وكولان ، لايدن ، جـ ١ .

ـ الكندى : القضاة والولاة ، ط روفن جست ١٩١٠ .

ـ المسعودى : التنبية والإشراف ، لايدن ١٨٩٤ .

ـ المقرى : نفح الطيب ، ط لايدن ١٨٥٥ـ١٨٦١ ، والقاهرة ١٩٤٧ .

ـ المقريزى : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ .

ـ المقريزى : النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، القاهرة ١٩٣٧ .

ـ النويرى : نهاية الأرب : ط جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٩ ، ج ١ و٢ .

ـ ابن هشام : سيرة الرسول ، ط محيى الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .

ـ الواقدى : مغازى ، ط فون كريمر ، كلكتا .

ـ أبو يوسف : كتاب الخراج ، ط المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٠٢ .

(ب) أبحاث :

ـ إبراهيم العدوى : المسلمون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٢ .

ـ حسن حسنى عبدالوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ج ٢ عدد ٢ ـ ١٩٤٩ .

ـ سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .

ـ شارل ديل : البندقية ، ترجمة عزت عبدالكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـ شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا .

ـــ عبدالرحمن زكى : السلام فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ .

ـــ عبدالمنعم ماجد : نظم الفاطميين ، القاهرة ١٩٥٣ .

ـــ فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، حـ ١ ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥١ .

(ج) مراجع غير عربية :

AMARI, MICHELE. Staria dei Musulmani di Sicilia (2'. éd de Nallino, Cattane 1933).

CAETANI, L. Annali dell Islam (Milan 1905-1910) vols 1-3.

CANARD, M. Expéditions des Arabes contre les Byzantins. Journal Asiatique, Mars 1926.

CHALENDON. Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, Paris 1907.

CHEIRA, M.A. La Lutte entre les Byzantins et les Arabes, Alexandrie, 1942.

DE GOEJE. Memoire sur la conquète de la Syrie (dans ses Memoires d'histoire et de géographie orientale) 2 vols. Leyde 1886.

DOZY. Musulmans d'Espagne, éd. Lévi Provençal, Leiden, 1932, 3 vols.

GASPAR RIMERO, MARIANO. Cordobeses.

GAUTIER. Le Passé de l'Afrique du Nord, 2'. éd. 1937.

GAY. L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin depuis l'avènement de Basile 1er. jusqu'à la prise de Bari par les Normands. Paris, 1907.

GROHMANN, A. From the World of Arabic Papyri, Cairo, 1951.

HEYD, W. Histoire du commerce du lévant au Moyen-Age, trad. fr. 2'. éd. Leipzig 1923.

HITTI. Origins of the Islamic State, New-York 1916.

MOSS, H. ST. L.B. The Birth of the Middle Ages. London 1946.

PIRENNE, HENRI. La civilisation occidentale au Moyen-Age (Paris 1933) Hist. Génerale de Glotz, vol. VIII.

PIRENNE, HENRI. Mahomet et Charlemagne. Paris, Bruxelles 1937.

PROVENÇAL, LEVI. Histoire de l'Espagne Musulmane, 1er. éd. Le Caire, 1944.
PROVENÇAL, LEVI. La Peninsule Iberique au Moyen-Age. Leiden 1938.
RUNCIMAN. Byzantine Civilisation. Oxford 1935.
SCHAUBE, ADOLF. Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmurs gebietes bis zum Ende der Kreuzzuge. Munchen-Berlin 1906.
VASILIEV. Histoire de l'Empire Byzantin, 2 vols (Paris 1932).
WUSTENFELD. Die Kampfe der Araber mit den Romern (Nachrichen d. K. Ges. Gottingen) 1901.